

اللغة الشعرية والخطاب الاجتماعي في الشعر العربي المعاصر:

قصيدة "صوت قبل الغرق" لمختار مرتضى نموذجاً

إمام إمام سليمان

قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كَنُو، نيجيريا

iisulaiman.ara@buk.edu.ng

تاريخ الإرسال: 2026/07/28 ؛ تاريخ القبول: 2026/09/06

Abstract

This paper examines the role of poetic language in contemporary Arabic literature as a medium for expressing social concerns, through an analytical reading of Mukhtar murtadha ibrahim Abu Nabhan's poem "A Voice Before Drowning." The study aligns with amodern trends in Arabic literature from the twentieth century to the present, sighting poetry as an active item that responds to ongoing social and economic transformations. The research is grounded in the central question of how poetic language transcends aesthetic expression to function as a socially engaged and protest-oriented discourse. Adopting a descriptive-analytical approach, the paper analyzes the linguistic and semantic structures of the poem, focusing on rhetorical interrogation, direct address, socially charged lexical fields, and rhythmic patterns that intensify the poem's argumentative and critical tone. The findings demonstrate that the poem moves beyond

the conventional framework of occasional poetry, establishing instead a conscious social discourse that reflects collective anxieties and critiques political and economic decisions affecting public life. The study concludes that contemporary Arabic poetry continues to play a vital role in articulating social awareness and participating in public discourse, thereby affirming its relevance within the achievements and evolving perspectives of Arabic literature from the twentieth century to the present.

Keywords:

Poetic language, social discourse, contemporary Arabic poetry, the poem "A Voice Before Drowning", Mukhtar Murtada

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة اللغة الشعرية في الأدب العربي المعاصر بوصفها أداة فاعلة في التعبير عن القضايا الاجتماعية، وذلك من خلال قصيدة "صوت قبل الغرق" للشاعر مختار مرتضى إبراهيم أبي نيهان. يسعى المقال إلى الكشف عن كيفية توظيف اللغة الشعرية لمساءلة الواقع الاجتماعي والسياسي في ظل التحولات الاقتصادية والضغوط المعيشية التي تواجه المجتمعات المعاصرة، كما يهدف إلى تحليل البنية اللغوية والدلالية للقصيدة، مع التركيز على آليات الاستفهام الإنكاري، والمخاطبة المباشرة، والمعجم المرتبط بالحقل الاجتماعي والسياسي، إضافة عن البنية الإيقاعية ودورها في تعزيز النبرة الخطابية للنص، كما يهدف إلى إبراز قدرة الشعر العربي المعاصر على التفاعل مع قضايا المجتمع، والإسهام في تشكيل الوعي الجماعي، بوصفه أحد الاتجاهات البارزة في الأدب العربي من القرن

العشرين إلى الوقت الحاضر. وتتجلى أهمية الدراسة في أنها تقوم بالتحليل مع الكشف على أن القصيدة تتجاوز إطار شعر المناسبات التقليدي، لتؤسس خطاباً اجتماعياً واعياً يعكس هموم الجماعة ويعبر عن موقف نقدي من السياسات المؤثرة في الحياة العامة. وتكمن إشكالية هذا البحث في كيف تتحول اللغة الشعرية في القصيدة المعاصرة من مجرد تعبير جمالي إلى خطاب اجتماعي احتجاجي مؤثر؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية، يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، ويتكون البحث من المحاور الآتية:

- المحور الأول: التعريف بالشاعر ومفهوم الشعر العربي المعاصر والقضية الاجتماعية

- المحور الثاني: عرض وتحليل القصيدة بوصفها خطاباً اجتماعياً

- المحور الثالث: التقييم الفني من ناحية الآليات والبنية الإيقاعية

- الخاتمة

- المصادر والمراجع

الكلمات المفتاحية: اللغة الشعرية ، الخطاب الاجتماعي، الشعر العربي المعاصر ، قصيدة "صوت قبل الغرق" ، مختار مرتضى.

المحور الأول: التعريف بالشاعر ومفهوم الشعر العربي المعاصر والقضية الاجتماعية

التعريف بالشاعر:

هو مختار بن مرتضى بن إبراهيم بن ثاني من مواليد عام 1987م في سَابُون غَرِن ثُو، التابع لحكومة محلية مَقَرَفِي، ولاية كَدُونَا، كان أبوه فلاحا اشتهر بالزراعة، وكان معروفا في المجتمع بصيته الحسن، وأخلاقه النبيلة. أدخله والده الكتاتيب عام 1998م في ولاية كَنُو، كما ألحق بالنظامية المسمى ب أَلُو طَن سِيدي عام 2000م، وتخرج عام 2003م وانتقل إلى ولاية كُنْشِنَا ليواصل الدراسة النظامية في كلية عثمان نَغُوغُو للغة العربية والدراسات الإسلامية، ثم لحقه أبواه واستوطنوا معه في المدينة (كتشيننا)، وبعد سنوات توفي والده.

مفهوم الشعر العربي المعاصر وارتباطه بالقضايا الاجتماعية:

نشأ الشعر العربي مرتبط كل الارتباط بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه العربي، إذ لم يكن في جوهره تعبيراً جمالياً فقط، بقدر ما كان وسيلة للتعبير عن القيم، والمواقف، والتحويلات التي يشهدها المجتمع. كما أشار طه حسين إلى أن الأدب "مرآة صادقة للحياة العقلية والاجتماعية للأمة...."، وأنه لا ينفصل عن ظروفها التاريخية والاجتماعية" (طه حسين، القاهرة، 1997ص 12)

ازداد هذا الارتباط وضوحاً في الأدب العربي المعاصر، لا سيما في القرن العشرين الذي فرضت التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية واقعاً جديداً انعكس بوضوح على الخطاب الشعري. في ظل الاستعمار، وما تلاه من أزمات ما بعد الاستقلال، برز الشعر بوصفه وسيلة للاحتجاج والتعبير عن الوعي الجماعي، وهو ما عناه محمد مندور حين عدّ الأدب الحديث "تعبيراً عن صراع الإنسان مع واقعه الاجتماعي والفكري" (محمد مندور، القاهرة، 1964 ص 45)

يبرز مفهوم الشعر الاجتماعي بوصفه اتجاهًا أدبيًا يعكس هموم الجماعة، ويسعى إلى مساءلة الواقع ونقد مظاهر الظلم والاختلال الاجتماعي من هذا السياق. كما يرى عبد الله الغدامي أن الخطاب الأدبي الحديث لم يعد محايدًا، بل أصبح "منخرطًا في إنتاج المعنى الاجتماعي ومساءلة السلطوية" (عبد الله الغدامي، بيروت 2000 ص 33)، "ومن ثم لم يعد الشاعر المعاصر منشغلًا بالذات الفردية وحدها، بل تحوّل إلى فاعل ثقافي يتبنّى قضايا المجتمع، ويعبر عنها بلغة رمزية مؤثرة.

وهذا التحول يُعدّ أحد الاتجاهات البارزة في الأدب العربي الحديث، حيث انتقل الشعر من كونه وصفًا للواقع إلى كونه خطابًا نقديًا يسعى إلى تفكيك بنيته وكشف تناقضاته. وقد أشار أدونيس إلى أن الشعر الحديث "لم يعد تزيينًا للواقع، بل أصبح فعلًا معرفيًا يرفض السائد ويقترح بدائل فكرية وجمالية"، (أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط. 3، 1983م، ص 17)

وهو ما يفسّر حضور القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في عدد كبير من النصوص الشعرية المعاصرة.

وفي هذا الإطار تمثل قصيدة "صوت قبل الغرق" للشاعر مختار مرتضى إبراهيم أبي نيهان، نموذجًا للشعر العربي المعاصر المنخرط في القضايا الاجتماعية الراهنة. فالقصيدة تنطلق من حدث اقتصادي محدد، لكنها لا تقف عند حدود المناسبة الظرفية، بل تتجاوزها إلى التعبير عن حالة اجتماعية عامة تتسم بالأزمة والاحتقان. وهذا ما ينسجم مع ما ذهب إليه صلاح فضل من أن النص الأدبي المعاصر "يتجاوز الحدث الآني ليصوغ رؤية شاملة للواقع عبر آليات لغوية وجمالية دقيقة" (صلاح فضل، القاهرة 1998 ص 91)

ومن هنا ينكشف الشعر في هذا النموذج خطاباً اجتماعياً واعياً، يسهم في تشكيل الوعي الجماعي، ويؤكد أن الأدب العربي المعاصر، منذ القرن العشرين إلى الحاضر، لم ينفصل عن قضايا المجتمع، بل ظلّ أحد أهم الوسائل التعبيرية القادرة على مساءلة الواقع والتفاعل معه.

المحور الثاني: عرض وتحليل القصيدة بوصفها خطاباً اجتماعياً

عرض القصيدة:

صَوْتُ قَبْلَ الْغَرَقِ!...

حين تتقدّم قرارات فرض الضريبة نحو التنفيذ في نيجيريا سنة 2025م، وتعلو أمواج أثارها فوق سفينة أرهقها العناء، لا يعود الصمت حكمةً، بل مقامرةً بالمصير. ففي واقع مُثْقَلٍ بالأزمات، يغدو هذا القرار جرس إنذارٍ أخير لشعبٍ ضاق به العيش، ولم يعد يحتمل مزيداً من الأثقال. ومن هنا يجيء هذا الصوت قبل الغرق؛ نداءً وعيً واستباقاً، يُطْلَقُ قبل أن تبتلع الأمواج ما تبقى، وتذكيراً بأن مراجعة القرار اليوم أهون من ندم لا ينفع غداً.

النَّصُّ الشَّعْرِيُّ:

أَضْرِبَةُ فَرَضَتْنَهَا وَخَرَجُ؟

أَمْ جَزِيَّةٌ نُعْطِيكَ يَا (أَشْوَاوُ) ؟

أَتَرَى قَرَارَكَ يَا رَئِيسُ مُنَاسِبًا

لِحَيَاةِ شَعْبٍ عَاقَهُ الْإِعْرَاجُ؟

جَاءَتْكَ آلَافُ الشَّكََاوَى جَهْرَةً

وَتَقُولُ سَوْفَ يَسُوءُ الْإِسْتِنَاجُ

لَكِنْ كَأَنَّكَ مَا فَهَمْتَ لُغَاتِهِمْ

فَرَكِبْتَ رَأْسَكَ وَالطَّرِيقُ زُجَاجُ

أَنْسَيْتَ مَا يَعْنِيهِ قَهْرُ رَعِيَّةٍ

لِقَبُولِ مَا مَحْصُولُهُ الْإِزْعَاجُ؟

أَتَسُوسُ فِي الشَّعْبِ الْأَبْيِّ بِشِدَّةٍ

أَنْ كَانَ تَحْتَ نُفُوزِكَ الْمِرْتَاجُ؟

أَوْ هَكَذَا تَعْنِي (دِيمُقْرَاطِيَّةً)

أَمْ أَنْ مَقْصِدُكُمْ هُوَ الْإِحْرَاجُ؟

أَوْ لَيْسَ هَذَا الْحُكْمُ كَانَ لِأَجْلِنَا

وَالِى الْمَيَاسِرِ يَذْهَبُ الْمِنْهَاجُ؟

أَمْ أَنَّهُ حُكْمٌ يَسُوسُ بِهَائِمًا
وَسَطَ الْفَلَاةِ تُحِيطُهَا أَسْيَاجُ؟

هَلْ نَحْنُ فِي أَرْضٍ بِهَا أَجْدَادُنَا
فِيهَا الْمَعَادِينُ مَزْرَعُ وَالْعَاجُ؟

أَمْ نَحْنُ مِنْ أَرْضٍ بِدُونِ إِقَامَةٍ
مُتَرَقِّبِينَ يُخِيفُنَا الْإِخْرَاجُ؟

مَاذَا تُفِيدُ بِمَا نَرَى (جَنَسِيَّةً)؟
إِذْ لَا اهْتِمَامَ لَكُمْ بِمَا نَحْتَاجُ

مِنْ أَيْنَ يَنْفَعُنَا شُمُولُ ضَرِيَّةٍ
فِي حِينِ ضَاقَتْ حَالُنَا يَا (حَاجُّ)؟

أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ شَعْبَكُمْ فِي مَذْبَحٍ
وَلَأَنْتُمْ أَدَوَاؤُهُ وَعِلَاجُ

أَوْ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ الْبِلَادُ تَسَاقَطَتْ
وَتَذْهَبَتْ أَحْوَالُهَا وَنِتَاجُ؟

وَتَقَهَّقَتْ أَوْضَاعُهَا وَتَعَذَّرَتْ
وَعَدَتْ كَلِيلَ لَيْسَ فِيهِ سِرَاجُ؟

أَتُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ سُوءُ مَعِيشَةٍ
فِي النَّاسِ حِينَ تَوَرَّمَتْ أَوْدَاجُ؟

أَفَلَا تَرِقُ لِحَالِ شَعْبٍ مُنْهَكٍ
لَزِمَ السُّكُوتَ كَأَنَّهُ لَجَاجُ؟

فِي كُلِّ يَوْمٍ يُسْتَفْزُ بِطَعْنَةٍ
وَكَلَامُكُمْ فِي حَقِّهِ إِدْمَاجُ

فَمَتَى يُرَى فَرَضُ الضَّرِيَّةِ مَخْرَجًا
فِي عَيْشِ شَعْبٍ سَادَهُ الْإِحْوَاغُ

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي نَزْعِ دَعْمِكَ سَابِقًا

نَفْعٌ لَنَا بَلْ ضَاقَ مِنْهُ فَجَاجُ

إِنْ لَمْ يُفِدْنَا مَا اقْتَرَضْتَ -وَطَنُنَا-

أَيَّامَ تَقْرَضُ يَبْدَأُ الْإِبْلَاجُ

لَكِنَّ هَذَا لَمْ يُضِفْ فِي شَعْبِنَا

شَيْئًا بِهِ يَتَحَرَّكُ الْإِنْتِاجُ

أَوْ فَرَضَكُمْ هَذِي الضَّرَائِبُ نَافِعٌ؟

فِي رَأْيِكُمْ وَالْبَحْرُ فِيهِ لَجَاجُ

مَاذَا يُخَوِّفُ دَوْلَتِي وَنُفُودَهَا؟

وَيُرِيدُ إِلَّا يَصْمُدَ الْمِعْرَاجُ؟

هُمْ مَنْ تَرَاهُمْ أَصْدِقَاءَ شَرَاكَةِ

وَمَتَى رَأَوْا فِينَا التَّقَدُّمَ هَاجُوا

أَفَلَا تُحَرِّرُ شَعْبَنَا مِنْ قَيْدِهِمْ

فَيَخَافَ مِنَّا ذَلِكَ الْهَدَاجُ؟

إِنِّي أَرَى شَعْبًا سَيَعْرِقُ حُكْمُهُ

وَلَوْ اعْتَلَى كُرْسِيَّهٖ حَجَّاجُ

بِاللَّهِ يَا (أَشَوَاجُو)، كُنْ مُتَّقِظًا

أَلْغِ الْقَرَارَ لِتَهْدَأَ الْأَمْوَاجُ

لَا تَمْضِ فِي شَيْءٍ يُصِيبُكَ شَرُّهُ

نَقْدُ لِسْعِكَ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ

وَإِذَا فَعَلْتَ تَظَلُّ نَجْمَ سِيَاسَةٍ

أَقْوَى، وَحِزْبُكَ مِشْعَلٌ وَهَّاجُ

مَا زِلْتُ أَرْجُو مِنْكَ حُكْمًا عَادِلًا

لِلْأَرْضِ وَالْأَفْرَادِ يَا (أَشَوَاجُو)

أبو نبهان، ١٤٤٧/٧/٤ هـ - ٢٠٢٥/١٢/٢٥ م.

تحليل النص

يفتح الشاعر قصيدته بخطاب مباشر يتخذ من الاستفهام الإنكاري وسيلة لمساءلة القرار السياسي، فيقول:

أَضْرِبَةُ فَرَضَتْهَا وَخَرَّاجُ؟

أَمْ جِزْيَةُ نُعْطِيكَ يَا (أَشْوَاوُ)؟

أَتَرَى قَرَارَكَ يَا رَئِيسُ مُنَاسِبًا

لِحَيَاةِ شَعْبٍ عَاقَهُ الْإِعْرَاجُ؟

تكشف هذه الأبيات -منذ البدء عن طبيعة الخطاب في القصيدة؛ إذ لا يهدف الاستفهام إلى طلب جواب، بل يُستعمل أداة إنكارية تشكك في مشروعية القرار وجدواه الاجتماعي. كما أن المخاطبة المباشرة لرأس السلطة تُخرج النص من نطاق التعبير الذاتي إلى فضاء المواجهة الاجتماعية العلنية، وهو ما يمنح القصيدة طابعاً احتجاجياً واضحاً.

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تمثيل صوت الجماعة، مبرزاً كثافة الشكوى واتساعها، فيقول:

جَاءَتْكَ آلاُفُ الشَّكَاوَى جَهْرَةً

وَتَقُولُ سَوْفَ يَسُوءُ الْإِسْتِنْتَاغُ

لَكِنْ كَأَنَّكَ مَا فَهَمْتَ لُغَاتِهِمْ

فَرَكِبْتَ رَأْسَكَ وَالطَّرِيقُ زُجَاجُ

تُبرز هذه الأبيات الفجوة بين السلطة والمجتمع، حيث يُصور الشعب بوصفه طرفاً متكلماً ومحتجاً، في مقابل سلطة غير مصغية.

ويُسهّم التعبير المجازي "الطريق زجاج" في تكثيف الإحساس بالخطر، مشيرًا إلى هشاشة المسار المتبع وقابليته للانكسار.

يتصاعد الخطاب في القصيدة نحو مساءلة أخلاقية وسياسية أعمق، كما في قوله:

أَنْسَيْتَ مَا يَعْنِيهِ قَهْرُ رَعِيَّةٍ

لِقَبُولِ مَا مَحْصُولُهُ الْإِزْعَاجُ؟

أَوْ هَكَذَا تَعْنِي (دِيمُقْرَاطِيَّةً)

أَمْ أَنَّ مَقْصِدَكُمْ هُوَ الْإِحْرَاجُ؟

يستثمر الشاعر هنا لغة الاستفهام لتفكيك المفاهيم السياسية المتداولة، وفي مقدمتها مفهوم "الديمقراطية"، مبرزًا التناقض بين الشعار والممارسة. وتتحول القصيدة في هذا السياق إلى أداة مساءلة فكرية، لا مجرد انفعال شعري.

تبلغ القصيدة ذروتها الدلالية عبر الصورة الرمزية المركزية، كما في قوله:

إِنِّي أَرَى شَعْبًا سَيَغْرُقُ حُكْمُهُ

وَلَوْ اعْتَلَى كُرْسِيَّهَ حَجَّاجُ

بِاللَّهِ يَا (أَشْوَاوُجُو)، كُنْ مُتَّقِظًا

أَلْغِ الْقَرَارَ لِتَهْدَأَ الْأَمْوَاجُ

تنهض صورة الغرق هنا بوصفها رمزًا للمصير الاجتماعي المهدد، وتتحول القصيدة إلى ما يشبه جرس إنذار، يوجّه تحذيرًا قبل فوات

الأوان. وبهذا تتجاوز القصيدة حدود المناسبة لتؤسس خطاباً اجتماعياً ذا بعد استشاري.

تحليل القصيدة بوصفها خطاباً اجتماعياً نقدياً

ويُظهر التحليل أن الشاعر يوظف اللغة الشعرية بوصفها أداة لإنتاج المعنى الاجتماعي، لا مجرد وسيلة للتعبير الانفعالي. فالاستفهام الإنكاري، والمخاطبة المباشرة، والمعجم المشحون بدلالات القهر والضيق، والصورة الرمزية المركزية (الغرق)، كلها آليات لغوية وأسلوبية أسهمت في تحويل القصيدة إلى فعل احتجاجي يُخاطب الوعي الجماعي. كما يؤكد ذلك القول بأن "الخطاب الأدبي الحديث يكتسب قيمته من قدرته على مساءلة البنى السلطوية وكشف أنساقها الثقافية" (عبد الله الغدامي، بيروت 2000 ص 41)

كما يتبين أن الخطاب في القصيدة يقوم على وعي واضح بالعلاقة بين السلطة والمجتمع، حيث تُعاد صياغة هذه العلاقة شعرياً في صورة صراع بين قرار سياسي معزول عن واقع الناس، وجماعة اجتماعية مثقلة بالأعباء الاقتصادية. ويجد هذا التمثيل صداه في ما طرح صلاح فضل الذي يرى "أن النص الأدبي المعاصر يعكس البنية العميقة للمجتمع، ويتحول إلى وسيلة لتمثيل الصراع الاجتماعي عبر آليات فنية وجمالية" (صلاح فضل، القاهرة 1998م، ص 103)

وعلى المستوى الفني، أكدت الدراسة أن البنية الإيقاعية للنص أدت دوراً دلاليًا مكملاً للغة، إذ أسهم انتظام الوزن ووحدة القافية والتكرار البنيوي في تصعيد النبرة الاحتجاجية. وهذا ما ينسجم مع رؤية أدونيس الذي عدّ "الإيقاع في الشعر الحديث عنصراً بنيوياً يسهم في إنتاج الدلالة، لا مجرد إطار موسيقي خارجي" (أدونيس، بيروت 1983 ص 29)

المحور الثالث: التقييم الفني من ناحية الآليات والبنية الإيقاعية

اللغة الشعرية وآليات التعبير الاجتماعي

تعتمد القصيدة اعتماداً كثيفاً على أسلوب الاستفهام، لا بوصفه طلباً للمعرفة، بل أداة إنكارية تُوظف للاعتراض والتشكيك والمساءلة، كما في قوله:

أَضْرِبَةُ فَرَضَتْهَا وَخَرَّاجُ؟

أَمْ جِزْيَةُ نُعْطِيكَ يَا (أَشْوَاوُجُو)؟

أَنْسَيْتَ مَا يَعْنِيهِ قَهْرُ رَعِيَّةٍ

لِقَبُولِ مَا مَحْصُولُهُ الْإِزْعَاجُ؟

يفقد الاستفهام هنا وظيفته النحوية التقليدية، ليغدو أداة لغوية للاحتجاج، إذ يُعبّر عن رفض القرار والطعن في شرعيته الاجتماعية. كما يُسهم تكرار هذا الأسلوب في خلق إيقاع لغوي تصعيدي يعكس احتدام الأزمة، ويحوّل القصيدة إلى خطاب مساءلة مفتوح.

كما تلجأ القصيدة إلى النداء والمخاطبة المباشرة، اللذين هم الاختيار لغوي ذو دلالة اجتماعية واضحة، كما في قوله:

أَتَرَى قَرَارَكَ يَا رَئِيسُ مُنَاسِبًا

لِحَيَاةِ شَعْبٍ عَاقَهُ الْإِعْرَاجُ؟

بِاللَّهِ يَا (أَشْوَاوُجُو)، كُنْ مُتَّقِظًا

أَلْغِ الْقَرَارَ لِتَهْدَأَ الْأَمْوَاجُ

تكشف هذه المخاطبة عن انتقال اللغة الشعرية من حيّز التعبير الذاتي إلى حيّز الفعل الخطابي، حيث يتحول الشاعر إلى طرف فاعل في المشهد الاجتماعي. فاللغة هنا لا تصف السلطة من بعيد، بل تواجهها مباشرة، مما يمنح النص قوة تداولية ويجعل القصيدة أقرب إلى خطاب اجتماعي علني.

وكذلك يتكئ الشاعر على معجم لغوي مشحون بدلالات اجتماعية وسياسية تسهم في رسم صورة الواقع المأزوم، كما في قوله:

أَنْتُمْ وَضَعْتُمْ شَعْبَكُمْ فِي مَذْبَحٍ
وَلَأَنْتُمْ أَذْوَاهُ وَعِلاجُ
أَتُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ سُوءُ مَعِيشَةٍ
فِي النَّاسِ حِينَ تَوَرَّمَتْ أَوْداجُ؟

تؤدي الألفاظ مثل: المذبح، سوء المعيشة، تورمت الأوداج، وظيفة تصويرية ودلالية مزدوجة؛ فهي من جهة تُكثّف الإحساس بالقهر، ومن جهة أخرى تُحوّل الأزمة الاقتصادية إلى حالة جسدية محسوسة، مما يعمّق الأثر النفسي والاجتماعي للنص.

وتُعد صورة الغرق من أبرز الأدوات التعبيرية في القصيدة، كما في قوله:

إِنِّي أَرَى شَعْبًا سَيَغْرَقُ حُكْمُهُ
وَلَوْ اعْتَلَى كُرْسِيَّه حَجَّاجُ

تتجاوز هذه الصورة بعدها البلاغي لتغدو رمزاً اجتماعياً شاملاً، يُحيل إلى الانهيار الجماعي المحتمل في حال استمرار السياسات القائمة. ويكمن ثقل الصورة في كونها لا تخص فرداً بعينه، بل تُسقط

الغرق على "الحكم" ذاته، في دلالة على تلازم مصير السلطة ومصير المجتمع.

كما يعتمد الشاعر على التكرار البيوي للاستفهام والنداء، وهو ما يخلق إيقاعاً لغوياً متوتراً يعكس حالة الاحتقان الاجتماعي. فالتكرار هنا لا يُعدّ حشواً أسلوبياً، بل وسيلة للتأكيد والإلحاح، تتلاءم مع طبيعة الخطاب الاحتجاجي الذي يسعى إلى إيقاظ الوعي وتحفيز الانتباه.

يتبين من خلال هذه الآليات اللغوية أن اللغة الشعرية في القصيدة تؤدي وظيفة اجتماعية واضحة، إذ تتحول من أداة جمالية إلى خطاب احتجاجي واعي، يوظف الاستفهام والمخاطبة والمعجم والصورة والإيقاع للتعبير عن أزمة اجتماعية شاملة. وبذلك يؤكد النص أن الشعر العربي المعاصر ما يزال قادراً على ممارسة دوره النقدي والتوعوي، والتفاعل مع قضايا الواقع بلغة فنية مؤثرة.

البنية الإيقاعية وتصعيد الخطاب الاحتجاجي

تقوم القصيدة على إيقاع منتظم المتمثل في البحر العمودي التقليدي، مع التزام واضح بالقافية، وهو اختيار فني له دلالاته؛ إذ يسهم الوزن المنتظم في تثبيت الخطاب، ومنحه طابع الجدية والصرامة، بما يتلاءم مع طبيعة القضية المطروحة. ويتجلى هذا الإيقاع منذ مطلع القصيدة، كما في قوله:

أَصْرِيْبَةُ فَرَضَتْهَا وَخَرَجُ؟

أَمْ جَزِيَّةٌ نُعْطِيكَ يَا (أَشْوَاوُجُو)؟

إن انتظام الوزن وتماسك القافية يمنحان الاستفهام قوة إضافية، فيتحول من سؤال لغوي إلى نداء احتجاج.

وتعتمد القصيدة –أيضا- قافية موحدة تنتهي بحرف الجيم المضموم غالباً (الإعراج – الاستنتاج – زجاج – الإزعاج – المرتاج – الإحراج...)، وهو حرف ذو جرس قوي، يسهم في خلق إيقاع خشن يتلاءم مع طبيعة الخطاب الاحتجاجي. ويتضح ذلك في قوله:

جَاءَتْكَ آلاُفُ الشَّكََاوَى جَهْرَةً

وَتَقُولُ سَوْفَ يَسُوءُ الْإِسْتِنْتَاجُ

فالقافية هنا لا تؤدي وظيفة موسيقية فحسب، بل تتحول إلى عنصر دلالي يعمق الإحساس بالضيق والاحتقان، ويسهم في توحيد الجو النفسي العام للنص.

وكذلك يلجأ الشاعر إلى تكرار صيغ لغوية بعينها، ولا سيما أسلوب الاستفهام والنداء، وهو تكرار يُنتج إيقاعاً داخلياً متوتراً يعكس تصاعد الأزمة الاجتماعية، كما في قوله:

أَتُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ سُوءُ مَعِيشَةٍ

فِي النَّاسِ حِينَ تَوَرَّمْتَ أَوْدَاجُ؟

أَفَلَا تَرِقُّ لِحَالِ شَعْبٍ مُنْهَكٍ

لَزِمَ السُّكُوتَ كَأَنَّهُ لَجَلَا؟

هذا التكرار لا يُعَدُّ حشواً إيقاعياً، بل يُمَثِّلُ آليةً فنيةً تُسهم في شدّ انتباه المتلقي، وتأكيد الرسالة، وإشراكه وجدانياً في حالة الاحتجاج.

ويتجلى الإيقاع الداخلي في القصيدة من خلال التوازي التركيبي بين الجمل، وتكرار البنى النحوية المتشابهة، كما في قوله:

أَمْ أَنَّهُ حُكْمٌ يَسُوسُ بِهَائِمًا

وَسَطَ الْفَلَاةِ تُحِيطُهَا أَسْيَاحُ؟

هَلْ نَحْنُ فِي أَرْضٍ بِهَا أَجْدَادُنَا

فِيهَا الْمَعَادِينُ مَزْرَعُ وَالْعَاجُ؟

يسهم هذا التوازي في خلق انسجام إيقاعي داخلي، يُعزّز الطابع الخطابى للنص، ويمنح المعاني قوة تراكمية تواكب تصاعد الخطاب الاحتجاجي.

كما يتجاوز الإيقاع في هذه القصيدة كونه إطاراً شكلياً، ليغدو عنصراً دلاليّاً يسهم في بناء المعنى الاجتماعي. فانتظام الوزن، ووحدة القافية، وكثافة التكرار، جميعها عناصر تُحاكي حالة الإلحاح والاستمرار في المطالبة، وتعكس شعور الشاعر بأن الخطر ليس طارئاً، بل متراكم ومتفاقم.

ومن هذا المنطلق يظهر أن البنية الإيقاعية في القصيدة تؤدي دوراً محورياً في تصعيد الخطاب الاحتجاجي، حيث تتكامل الموسيقى الخارجية والداخلية لتشكيل نبرة شعرية متوترة، تتلاءم مع طبيعة الأزمة الاجتماعية المطروحة. وبذلك يتأكد أن الإيقاع في الشعر العربي المعاصر ليس عنصراً زخرفياً، بل أداة فنية فاعلة في التعبير عن القضايا الاجتماعية وتعميق أثرها في المتلقي.

الخاتمة

تكشف الدراسة التحليلية للقصيدة أن النص الشعري يتجاوز حدود التعبير الفني المرتبط بالمناسبة الظرفية، ليغدو خطاباً اجتماعياً نقدياً واعياً، يُسائل الواقع ويُحاكم السياسات المؤثرة في حياة المجتمع. ويتوافق هذا التوجّه مع ما ذهب إليه محمد مندور من أن "الأدب الحديث لم يعد انعكاساً سلبياً للواقع، بل أصبح أداة فاعلة في نقده وتغييره" (محمد مندور 1964 ص 52)

ومن خلال هذا البناء القائم على الشواهد النصية والتحليل الدلالي، يتضح أن قصيدة "صوت قبل الغرق" لا تُقرأ بوصفها ردّ فعل آنياً، بل خطاباً شعرياً واعياً، يوظف اللغة والصورة والإيقاع للتعبير عن أزمة اجتماعية شاملة، مؤكّداً قدرة الشعر العربي المعاصر على الاضطلاع بدور نقدي وتوعوي في آن واحد.

كما تتخلص الدراسة، في ضوء ما تقدّم، إلى أن قصيدة "صوت قبل الغرق" تمثّل نموذجاً دالاً على أحد الاتجاهات البارزة في الأدب العربي المعاصر، حيث يتداخل البعد الجمالي مع البعد الاجتماعي ويتحوّل الشعر إلى خطاب نقدي يشارك في تشكيل الوعي الجماعي. ويؤكد ذلك ما ذهب إليه طه حسين من "أن الأدب الحقيقي هو الذي يتصل بحياة الناس، ويعبّر عن قضاياهم، ويؤدي وظيفة ثقافية واجتماعية تتجاوز حدود الفن الخالص" (طه حسين، القاهرة 1997 ص 18)

المراجع:

- أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983م.
- صلاح فضل، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1998م.
- طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، 1997م.
- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، الطبعة الثانية، 2000م.
- محمد مندور، في الميزان الجديد، دار نهضة مصر، القاهرة، 1964م.